﴿* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّحذيرُ مِن خِداعِ مَظهَرِهم بَعدَ فَضحِ نواياهم

بعدَ أن بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ بواطنَ المنافقين وفَضَحَ كَذِبَهم، وقَبَّحَ أعمالَهم، أتبَعُه هُنا في هذه الآية ببَيان أحوالِهم مِن حُسنِ المنظر في الظّاهر وسوء المَخبر في الدّاخِل، فهو انتقالٌ مِن كشف سلوكهم الخفيِّ إلى كَشفِ صفاتهم الظّاهِريَّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُشُبٌ﴾: (خشب) أصلٌ يَدُلُّ على خُشونَةٍ وغِلَظٍ[2]. والخَشَبَةُ: ما غَلُظَ مِن العيدانِ، والجَمْعُ خَشَبٌ، مِثْلُ شجرةٍ وشَجَرٍ، وخُشُبٌ وخُشْبانٌ[3]. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، ووُصِفَ به المنافقون في هذه الآية تشبيهًا لهم بالخَشَبِ في تَركِ التَّفَهُّمِ والاستبصار، وتَركِ وعْي ما يسمعون من الوَحْي[4].

2) ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: (سند) أصلٌ يَدُلُّ على انضمام الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[5]. وكلُّ شيءٍ أسندتَ إليه شَيْئًا، فَهوَ مُسْنَد[6]. سَنَد إليه: رَكَن إليه واتَّكأ، وكذلك استند وتساند[7]. والمرادُ به في الآية الكريمة: مُمالةٌ إلى الجدار[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خشب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (خشب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سند).
(6) الخليل، العين: (سند).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سند).
(8) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 404.

3) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيْءِ وصَرْفِه عن جِهَتِه. يُقالُ: أُفِكَ الشَّيءُ؛ وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ. والإفكُ الكَذِبُ. وأفَكْتُ الرَّجُلَ عن الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتُهُ عنه[1]. والأَفْكُ، بالفَتحِ: مَصدَرُ قولِكَ أفَكَهُ عن الشَّيْءِ يَأْفِكُه أفْكاً، أي: صَرَفَهُ عَنهُ وقَلَبَهُ، قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذّاريات: 9]؛ أي يُصْرَفُ عن الإيمان مَن صُرِف، والأفّاك: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُمْ عن الحَقِّ بباطِلِه[2]. فالإفْكُ: كُلُّ مَصروفٍ عَن وجهِه الَّذي يَحِقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المَهابِّ: مُؤْتَفِكَة. قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يُصرَفون عَن الحَقِّ في الاعتقاد إلى الباطل[3]. فالمقصود في الآية الكريمة: يُصَدّون ويُصرَفون عن الحَقِّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مظهرٌ خادِعٌ وقولٌ مُزَوَّرٌ

يَذكُرُ اللّهُ تعالى مِن أوصافِ المنافقين ما يُعرَفون به، فيقول ما معناه: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أيُّها الرّائي ستُعجِبك هيئاتُهم ومناظرُهم، وإنَّهم إذا تَحَدَّثوا فإنَّك تَسمَعُ لِحَديثِهم؛ لِفَصاحتهم وحُسنِ بيانهم، ولكنَّهم فارِغو القلوب والعقول مِن الفَهمِ والإيمان، فَهُم أشبَهُ بالأخشاب المُيَّتَة الملقاة على الحائط، التي لا نَفعَ فيها، وإنَّهم لِشِدَّة خوفهم وجُبنِهم فإنَّهم يظُنّون كُلَّ صَوتٍ مرتفعٍ قَصدًا لهم وفَضْحًا لِأمرِهم، فَهُم في رُعبٍ دائمٍ؛ لِعلمِهم بحقيقة حالهم، فاحذَرْهُم يا رسول الله؛ لِأنَّهم هُمُ العَدوُّ الكامِل في العِداء، ولا عَدوَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(3) الرّاغب، المفردات: (أفك).
(4) الواحديّ، البسيط: 10/ 383.

غيرهم، فَخُذ حِذرَك مِنهم، أخزاهم الله وطَرَدَهم مِن رحمته، كيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم فيه من النِّفاق والضَّلال؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في قوله ﴿وَإِذَا﴾:

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ على الجملة في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ وفائدةُ العَطفِ هنا الاحتراس؛ وذلك لِدَفع إيهام مَن يَغتَرُّ بظواهر النّاس، ولتحذير المؤمنين مِن الانخداع بجمال المظهر وفصاحة القول. وهو يكشِفُ التَّناقض الواضح بين ظاهر المنافقين الَّذي يُعجِبُ الرّائي، وباطنِهم الفاسد[2].

تحذيرٌ مِن جمال الظّاهر وخَواء الباطن

بلاغةُ التَّعبير بالجُملة الشَّرطيَّة:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وذلك للدِّلالة على أنَّ الرُّؤيَة مُتَكَرِّرَة، فَهُم على هذه الحال دائمًا، تنبيهًا على أنَّهم لا يجاوزون الاهتمام بالظّاهر، فهو مبلَغُ اهتمامهم[3].

حُسنُ الظّاهر لا يُخفي سوءَ الباطن

وفي التَّعبير بـ(إذا) إشارَةٌ إلى كَثرَةِ غَشَيان المنافقين إلى مجالس رسول الله ﷺ ليُبعدوا عن أنفُسهم تُهمة النِّفاق؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ(إذا) الدّالَّة على تَحَقُّق الرُّؤية، وكَأنَّهم يحاولون إبرازَ هيئتهم ليراهم رسولُ الله ﷺ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالرُّؤية مادَّةً وصيغَةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بـ(الرُّؤيَة) في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ دون (النَّظر) لأنَّ المرادَ بها هنا رُؤيَةٌ بَصَريَّةٌ

محطُّ الإعجاب بهم رؤيةُ البصر لا البصيرة

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 88.

عَينيَّةٌ[1]. وذلك إشارةً إلى أنَّ الإعجابَ يَنشأُ مِن مُجَرَّد النَّظر الظّاهِريِّ، لا مِن التَّأمُّل العميق أو التَّبصُّر بحقيقتهم، والَّذي يَحملُه معنى النَّظر، وجاءت الرُّؤية بصيغة الماضي للدِّلالة على تَحَقُّقِها ووقوعِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإفراد ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالإفراد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ مع أنَّ المعجَبين أصحابُ رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الإعجاب إذا وقع منه ﷺ بهم؛ فأولى أن يقع الإعجاب مِن أصحابه رضوان الله عليهم، ويجوز أن يكون الخطاب موَجَّهًا للصَّحابة وللمسلمين؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُعجِبُه مثلُ هذه الصّورةِ الفانيةِ إلّا إذا لاحظ خالِقَه كما قال ﷺ «إنّ مِن البيان لَسِحرًا[2]».[3]

مَظهرٌ خادعٌ كاذبٌ يدعو إلى الإعجاب في بادئ الأمر

دلالةُ الإضمار في قوله ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالإضمار ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ دون الإظهار (رأيت المنافقين) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ مع أنَّهم معروفون لدى رسولِ الله ﷺ، وهُم: عبدُ الله بن أُبَيٍّ، ومغيثُ بن قَيس، وجَدُّ بن قيس؛ كانت لهم أجسامٌ تُعجِب النّاظِر لها لِحُسنِها وجَمالِها، ومع ذلك جاء التَّعبيرُ بالإضمار للتَّقليل والتَّهوين مِن شأنهم، رغمَ ظَنِّهم أنَّهم يمتلكون مُقَوِّمات التَّشريف في الخطاب؛ فجاء الإضمارُ ليُظهِرَ أنَّ الحُسنَ الظّاهريَّ لا وزنَ له ولا قيمَةَ ما لم يرتبط بالإيمان.[4]

دلالةُ التَّعبير بقوله ﴿تُعْجِبُكَ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بالفعل ﴿تُعْجِبُكَ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ للدِّلالة على أنَّ مَظهرَهم يَعظُم في نفوس

حَسُنَ مظهرهم حتّى أثاروا الإعجاب

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.
(2) البخاري، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (5767).
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 100، والآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 111.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 331.

مَن يَراهُم، لِحُسن منظرهم ولغرابته؛ لأنَّ العُجب انفعالٌ يعرض للنَّفْس عند مشاهدة أمرٍ غَير مَألوفٍ خَفيَ سَبَبُه، ولمّا كان شأنُ ما يَخفى سبَبُه ترغب فيه النَّفس، صار العُجب مستلزمًا للإحسان، وذلك لأنَّ مظهرهم يَعظُم في نُفوس مَن يَراهم لِحُسنِه وجماله، ولِأنَّ الإعجابَ مِن العُجب، وهو كونُ الشَّيءِ خارِجاً عَن نَظائِره مِن جِنسِه، وهذا ظاهِرٌ في حُسنِ مَظهَرِهم وجَمالِ خِلقَتِهم الَّتي تُمَيِّزُهم عن غيرِهم.[1]

دلالةُ الخِطاب في قوله ﴿تُعْجِبُكَ﴾:

بلاغةُ الخطاب في التَّحذير والإنذار

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالخِطاب في قولِه تعالى: ﴿تُعْجِبُكَ﴾؛ لِغَرَض تَحذيرِ النَّبيِّ ﷺ أصالةً، والمؤمنين تبعًا، مِن هذا الصِّنف الخطير في المجتمع، ولِكَي لا تَروج على المسلمين حيَلُ هؤلاء المنافقين انشغالًا بِمَظهَرِهم وحُسنِ كلامهم؛ لأنَّ حُسنَ المَظهَرِ وقوَّةَ البيان مِن وسائل الهَدمِ الَّتي يَتبَعُها المنافقون في سُلوكِهم معَ المسلمين.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الأجسام دون غيره:

مِن حُسنِ الإنعام عليهم حُسنُ ظاهِرِهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الجِسم في قولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ وذلك لأنَّ الجِسمَ ما فيه ضخامةٌ وحُسنُ هَيئَةٍ، وهو يشمَلُ البَدَنَ والرّوحَ والنَّفسَ، ويمتاز بالحياة[2]، وأمّا الجسد فهو الَّذي لا يعقِل ولا يُمَيِّزُ، ويُطلَقُ على الجُثَّة فقط[3]، ولذلك كان إطلاقُ الجسم على الأجزاء والأعضاء مِن الأحياء دون الأموات، والجسمُ يحمِلُ دلالةَ البَهاءِ والإعجاب مِن عِظَم الخَلقِ وتناسُقِ الأجزاء، وليس هذا في الجسد[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 226.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 88.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جسد).
(4) الدّوريّ، دقائقُ الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 109.

بلاغةُ الكِناية في قولِه ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾:

المنافقون مُجرَّد أشباحٍ ليس وراءها جواهِرُ وحقائقُ

كنَّى النَّظمُ الجليلُ بقولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ عَن خَوائهم الدّاخليِّ، فإنَّ منتهى غايتهم وكُلَّ عنايتهم بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفُسِهم، فَهُم مُجَرَّدُ أشباحٍ وقوالب، ليس وراءها جواهِرُ وحقائق[1]، وهذا شَأنُ مَن خلت قلوبُهم مِن الإيمان؛ فلا ينشغلون إلّا بالمَلَذّات والشَّهوات وحُسنِ المَظهَرِ واللِّباس؛ فَهُم لا يبنون العقولَ، بل يبنون الأجسام.

دلالةُ الإضافةِ في قوله ﴿أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾:

تخصيصُ المنافقين بتوظيفِ النِّعمة في غير محلِّها

دَلَّت الإضافةُ في قولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ على التَّخصيص والتَّعيين لهذا الصِّنف مِن النّاس بما خُصّوا به مِن جمالِ الخِلقَةِ وحُسنِ الهَيئَة وتوظيفهم ذلك في إثارة الفِتَنِ بين المسلمين، وإلّا فالكثيرُ مِن المسلمين يتمتَّعون بحُسن الخِلقة وجمال المظهر، ويعُدّون ذلك مِن باب النِّعَم الَّتي ينبغي شُكرُها.

سِرُّ إسنادِ الإعجاب إلى الأجسامِ دون الأقوال:

الخداعُ بفصاحة اللّسان وقوَّة البيان وصفٌ عامٌّ في المنافقين

النّاظِرُ في هذه الآية يَجِدُ أنَّ القرآنَ أسنَدَ الإعجابَ إلى الأجسام في قوله: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ دون القول؛ بخلافِ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ [البقرة: 204] لاختلاف السّياق بينهما؛ فموضع سورة المنافقون جاء في أشخاصٍ بأعينهم، وهُم عبدُ اللّه بنُ أُبَيٍّ وجماعته، وكانوا يُعرَفون بجمال أجسامهم وضخامة بنيتهم؛ فجاء القرآن لبيان هذه الحالة الَّتي كانوا عليها؛ أمّا في موضع سورة البقرة، فهو حديثٌ عامٌّ في شأن المنافقين، والغرضُ تحذيرُ الأُمَّةِ مِن فصاحة لسانهم وقوَّة بيانهم الكاذب في عرض الحقائق؛ لذلك أُسنِد الإعجاب إلى القول لأنَّ عادةَ المنافقين تزيينُ أقوالهم دون تزيين أفعالهم.

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾:

تحسينُ القول للتَّغطية على سوء الباطن

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ وهي هنا اعتراضيَّةٌ، تَفصِلُ بين الجُملَتَين المُرتبطتين في المعنى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾، وقولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، والمقصودُ بها إبرازُ خداعٍ آخَرَ في صِفاتِهم، وهو فصاحةُ القولِ الَّتي تخدع السّامِع كما يخدعه حُسنُ المَظهَرِ، فهي تُعَمِّقُ المفارَقَةَ بين ظاهِرِهم الجاذِب وباطِنِهم الفارغ[1].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

حُسنُ البيان وسيلةُ الخداع

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لِما في صيغة الشَّرط مِن دلالةٍ على التَّكرار والتَّلازم، أي إنَّهم متى تَحَدَّثوا سَحَرك مَنطِقُهم، فَدَلَّ بذلك على فِتنَة المظهر وفصاحة اللَّفظ، مع خَواء الجوهر وانتفاء الإيمان[2].

سرُّ التَّعبير بـ(إن) مَعَ القول:

تحقيقُ الرُّؤية واحتمالُ القَولِ

عَدَلَ النَّظمُ الجليلُ عن استعمالِ أداة الشَّرطِ (إذا) إلى الأداة (إن) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ بَعدَ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ وذلك لأنَّ (إن) لمّا كان محتملًا غَيرَ مُؤَكَّدٍ، و(إذا) لمّا كان مُحَقَّقَ الوُقوع، استُعملت (إذا) مع الرُّؤية لأنَّ أجسامَهم حاضرةٌ مَرئيَّةٌ لا تَنفَكُّ، فهي أمرٌ مُتَحَقِّق الوُقوع، بينما عُدل إلى (إن) مع القول لِأنَّه أمرٌ كَسبيٌّ مِن قِبَلِهم، قد يكون أو لا يكون، وهو غيرُ دائمٍ لارتباطه بِنُطقِهم أو سكوتهم، فناسبه التَّعبيرُ بـ(إن) لكونه محتملًا غير متحقِّقٍ دائمًا[3]. وفيه إشارةٌ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 231 - 232.

أنَّهم لا يُكَلِّمونه ﷺ إلّا اضطرارًا؛ لأنَّهم لا يُحبّون مكالمَتَه، ولا باعِثَ لهم عليها لِما عندهم مِن أمراض القلوب.(1)

دلالةُ التَّعبيرِ بِفِعل القَول مادَّةً وصيغَةً:

أقـوالُ المنافقين لا تـصـدُر عـن عقيدةٍ صحيحةٍ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالقَولِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ للدِّلالة على أنَّ كلامَهم غيرُ مُفيدٍ، وإشارةً إلى خَواء كلامهم مِن الحقائق، فهو لا يَعدو أن يَكون حروفًا مَنطوقَةً تُسمع كما يُسمع صليلُ الأجراس(2)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أقوالَهم لا تصدُرُ عن عقيدةٍ؛ فَهُم يقولون ما لا يَفعَلون، وجاء التَّعبيرُ بالفِعل المُضارع للدِّلالة عَلى تَجَدُّدِ صدور هذا اللَّفظِ مِنهم كُلَّما أرادوا خِداعَ السّامعين بزُخْرُف الكلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ السَّماعِ مادَّةً وصيغَةً:

حُسنُ الفصاحة يُغري بالسَّماع

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالسَّماعِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ دونَ الإنصات؛ لأنَّ السَّمعَ هو إدراكُ المسموع؛ بخلافِ الإنصات، فأصلُه يَدُلُّ على السُّكوتِ والاستماعِ للحَديث؛ ولمّا كان المقامُ يَتَعَلَّقُ بالكلام الصّادر عَن المُنافقين، وهو لا يَحمِلُ حَقيقةً تحتاج إلى إنصات، اكتُفي بالسَّماع؛ يؤكِّد هذا ما ورَدَ في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: 204]؛ فَجَمَعَ القرآنُ بين الاستماع والإنصات، لِما يَحمِلُه مِن المعاني والعِظات؛ وجاء الفِعلُ بصيغة المضارع للدِّلالة على التَّجَدُّد والتَّكرار لِفِعلِ السَّماع، مع أنَّه سماعٌ لا يُقصد به التّأثُّر أو الفَهمُ، بل هو مُجَرَّدُ تَلَقٍّ للصَّوتِ لجمالِ ألفاظهم وفصاحة كلامهم، كما يَسمَعُ المرءُ صَوتَ الأجراسِ دون أن يكون له فيها نفعٌ أو معنًى(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/ 609.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

سِرُّ تَعديةِ فِعل السَّماع باللّام:

تضمين السّماع الإصغاءَ مبالغةً في حُسنِ الفصاحة

عَدَّى النَّظمُ الجَليلُ فِعلَ السَّماعِ (باللّام) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ وذلك لتضمين الفِعلِ معنى الإصغاء[1]، فإنَّ ألفاظَهم فصيحَةٌ حَسنةٌ بِحَيثُ إنَّها تستدعي الإصغاء، وذلك مِن خلال عبارات السَّجَعِ والألفاظ المُنَمَّقة؛ لأنَّهم يهتَمّون بتحسين القول وإغفال المعنى.

بلاغةُ الكِناية في السَّماع لقولهم:

فصاحةٌ ظاهرةٌ تُغطّي خَواء الجوهر

كَنَّى النَّظمُ الجَليلُ بالسَّماعِ لِقولِهم في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ عَن فَصاحَتِهم وذلاقة ألسِنَتِهم وحلاوة كلامهم[2] لدرجة أنَّك تَظُنُّ أنَّهم يقولون الحَقَّ لِحُسنِ قَولِهم، فهو تعبيرٌ يَكشِفُ اهتمامَهم بظواهرِ الأمور دون بواطنها.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾:

تنبيهٌ لكشف حقيقةِ الباطن بعد خداع الظّاهر

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت جوابًا عَن سؤالٍ يُثار بَعد مَدحِ ظاهرهم بِحُسنِ الأجسامِ وفَصاحةِ الكلام، إذْ قد يَتَوَهَّمُ السّامع أنَّ هذا مدحٌ حقيقيٌّ لَهم، وهو غيرُ مناسب لِما قبله مِن الذَّمِّ، فيسأل ماذا بعد هذا المدح؟ فاستأنف تشبيهَهم بالخُشُب المُسَنَّدَة لِكَشف خَوائهم الدّاخليِّ، وبيانِ أنَّ ظاهرَهم الخادع لا يعكس باطنَهم الفاسد[3].

بلاغةُ التَّشبيه في قولِه ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾:

تشبيهٌ يكشِفُ حقيقة الباطن بعد خداع الظّاهر

تظهرُ بلاغةُ التَّشبيه في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾؛ حيثُ شَبَّهَ النَّظمُ الكريمُ قُلوبَ المنافقين وهي فارغةٌ مِن الإيمان

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 403.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

والخيرِ بالخُشُب الجوفاء المُسَنَّدةِ إلى الحائط، وهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يَجمَعُ بين ظاهرِ أجسامِهم المُدهِش، وخواءِ باطنِهم مِن الفَهم والإيمان[1]. فالخُشُب المُسنَّدة لها منظرٌ يوهم بالقوَّة والنَّفع، لكنَّها في حقيقتها جمادٌ أجوَفُ لا حياةَ فيه ولا ثمرة، لا يُنتفع بها ولا يُرجى منها عملٌ. كذلك حالُ المنافقين: أجسامٌ تُثير الإعجاب، وكلامٌ يَغُرُّ السّامع، ولكن لا عقلَ ولا فقهَ ولا إيمانَ في قلوبهم. وجاء التَّشبيه على وجهِ الذَّمِّ البليغ، لِكَشف خوائهم الدّاخِليِّ بعد أن صوِّرت أجسامُهم فيما سبق بما يُثيرُ الإعجاب[2].

بلاغةُ موقِعِ التَّشبيهِ بَعدَ قولِه ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

أجسامٌ خاليةٌ، لفُقدان الفقه

تظهرُ بلاغةُ ترتيب الآيات في السّورة في إبراز المعاني وتناسقها، وهذا واضحٌ في إيراد تشبيه المنافقين في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ بعد ختام الآية السّابقة بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وذلك للتَّنبيه على عدم الاغترار بِحُسنِ صوَرهم؛ لأنَّها أجسامٌ خاليَةٌ مِن كمالِ الأنفُسِ؛ فلا تحمِلُ مِن كمال الإنسانيَّة شيئًا؛ فجمالُ الإنسان الحقيقيُّ مرتبطٌ بإيمانه. وفيه إشارةٌ إلى تحذير المؤمنين مِن فصاحة كلامهم وذلاقة لسانهم؛لأنَّ القرآن وصَفَهم بِعَدَم الفقه في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿خُشُبٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أهلُ النِّفاق لا يفقهون ولا يعقلون

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الخُشُب في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، فهم كأخشابٍ مَرصوصَةٍ مَيِّتَةٍ، لا تَفقَه ولا تَعقِل. وأنَّ الخُشُبَ يدُلُّ تدُلُّ على الجمود وخُلوِّ الدّاخل، فَهُم في تَركِهم للفَهمِ والوَحي كالأخشاب اليابسة، لا حياةَ فيها ولا وعي[3]. وجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 240.
(2) الواحديّ، البسيط: 21/ 470 - 471، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 403.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خشب).

التَّعبيرُ بصيغة جَمع الكَثرة ﴿خُشُبٌ﴾ دون أخشاب؛ للدِّلالة على كثرة عددهم[1] ولأنَّه أبلغ في الذَّمِّ مِن جَمع القِلَّة، وهذا التَّعبيرُ يُشير إلى أنّهم - مَع كثرتهم الظّاهرة - لا يختلِفُ بعضُهم عن بعض في صفاتِ الجمود والخواء مِن الفَهم والبصيرة.

سِرُّ إيثارِ التَّشبيهِ بالخُشُب دون سائِر الجمادات:

شَبَهُ المنافقين بالخشب المُسنَّدة في عدم الانتفاع، وفي تغاير الطَّرَفين

آثر القرآنُ الكريمُ التَّشبيهَ بالخُشب في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، لأنَّ الخُشبَ إمّا أن يُنتفع بها في سَقفٍ أو جدار أو غيرهما مِن مظانِّ الانتفاع، وإمّا أن تُترَك فارغةً غيرَ منتفع بها، فتُسنَدَ إلى الحائط؛ فَشُبِّه بها المنافقون في عدم الانتفاع.

ومِمّا يُذكَر في سِرِّ التَّشبيه أيضاً أنَّ الخشب المسنّدة كانت في الأصل غصنًا طريًّا يصلح أن يُنتفع به؛ ثُمَّ صارت غليظةً يابسةً لا ينتفع بها؛ فكذلك المنافق كان في الأصل صالحًا، ثُمَّ خرج عن تلك الصَّلاحيَّة بِنفاقه.

ومنها أنَّ الخشب المسنّدة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهةٍ، والآخر إلى جهةٍ أُخرى، والمنافقون كذلك؛ لأنَّ المنافق أحدُ طَرَفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكُفر، والطَّرفُ الآخر وهو الظّاهر إلى جهة أهل الإسلام.[2]

نُكتةُ وصفِ الخُشُب بأنَّها ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾:

خشبٌ ميتةٌ لا انتفاعَ فيها

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ الخُشبَ بأنَّها مُسَنَّدةٌ في قَولِه جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾؛ وذلك للدِّلالة على أنَّها ليسَت بأشجارٍ نابِتَةٍ في الأرض تنمو وتزيد وتُنبت الورق والثَّمر، بل هي خشبٌ ميتةٌ مُلقاة بعضُها على بعضٍ مُسَنَّدة إلى حائط، لا انتفاع بها[3]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 81.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 332.
(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 471.

لأنّها "إذا كانت غيرَ مسنّدة تكون سُقُفًا أو عُمُدًا أو غيرَ ذلك ممّا فيه منفعة"[1].

كما فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه الخُشُبَ قُطِعَت مِن مغارسها، وقُشرت وأُسنِدت إلى الجدار لِئَلّا يُفسدها التُّراب؛ فهي بيضٌ تَلوحُ، تُعجِبُ ناظرَها، ولا ثبات لها، ولا باطنَ بثمرةٍ، ولا سقيَ، فلا مددَ سماويَّ لها أصلًا يزكّيها؛ لذلك فَقَدَت روح الإنبات الَّذي به كَمالُها، كما فَقَدَ المنافِقُ روحَ الإيمان الَّذي به كمال النّاطق وبقاؤه؛ فَهُم في تلك الحالة أشباحٌ بلا أرواح، أجسامٌ بلا أحلامٍ.[2]

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ المُسَنَّدة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾؛ للدِّلالة على أنَّها مُمالةٌ إلى الحائط تستند عليه، فهي مُلقاةٌ بعضها على بعض مُسنَّدةٌ إلى حائطٍ[3]. وجاء التَّعبيرُ بصيغة (مُفَعَّلة) بتشديد العين للمبالغة والتَّكثير، فَكَأنَّها أُسندت كثيرًا إلى مواضعَ مختلفة[4].

هيئةٌ ظاهرُها ثباتٌ، وباطنها خَواءٌ وجمودٌ

نُكتةُ فَصلِ قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾:

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، سيقت لبيان صِفَةٍ أخرى مِن صفات ذَمِّهم ومخالفتهم لصورتهم الحسنة الّتي تراها العين، فَهُم جُبناءُ يخافون مِن كُلِّ صَيحَةٍ[5]. فَهُم أهلُ جُبنٍ في صورة شُجعان. وهذا مِن جُملة ما فَضَحته هذه السّورة مِن أسرارهم وفضائحهم[6].

المنافقون جُبناءُ في صورة شُجعان

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 232.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 609.
(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 471، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 533.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 240.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿يَحْسَبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خوفٌ دائمٌ نابعٌ مِن رَيبٍ مُقيم

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الحسبان في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ﴾؛ للدِّلالة على الظَّنِّ[1]، فَهُم يتَّبِعون الظَّنَّ الغالب غير المبنيِّ على بَيِّنَةٍ، وهذا يكشف ضَعفَ عقولهم وشِدَّة ارتيابهم، فَهُم يتقلَّبون في سوء أعمالهم، ويَقَعون أسرى لأوهامهم[2].

وقَد يُفَرَّقُ بَينَ الحُسبانِ والظَّنّ بأنَّ الحسبانَ معناه أنْ يَحكُم لأحد النَّقيضَين مِن غير أنْ يخطر الآخرُ بباله، بخلاف الظَّنِّ، فهو اسمٌ لما يحصل عن أمارةٍ متى قويَت أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت لم تتجاوز حدَّ الوهم، وعلى ذلك كان التَّعبيرُ بالحسبان؛ لأنَّ المنافقين لا يخطر ببالهم إلّا الخوفُ والرُّعب، ولم يجعلوا في حساباتهم جانبَ الأمن والطُّمأنينة بل يعيشون في خوفٍ دائم.

وجاء التَّعبيرُ بالفِعل المضارع للدِّلالة على تَكرار خوفهم، وقَلَق أنفُسِهم، فَهُم في خوفٍ دائم وارتقابٍ مُرعب، يحسبون كُلَّ نداءٍ نذيرَ هلاك، وكُلَّ صَوتٍ تهديدًا يقصدهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كُلَّ﴾:

رعبٌ متجدِّدٌ مِن كُلِّ مجهول

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿كُلَّ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ﴾؛ لدِلالته على الكثرةِ لا العموم؛ فَهُم إنَّما يتوَجَّسون خوفًا مِن تلك الصَّيحات الَّتي لا يعلمون أسبابها[3]، ويجوز أنْ يُحمَل على العموم ليشمل صغيرَ الصَّيحات وكبيرَها، وفي هذا تصويرٌ للحالة النَّفسيَّة الّتي يعيشُها المنافقون مِن القلق والخوف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿صَيْحَةٍ﴾:

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ﴿صَيْحَةٍ﴾ دون صوت في قوله تعالى:

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 241.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ الصَّيحَةَ تُطلَقُ على الصَّوت المرتفع، ويُعَبَّرُ بها في مقام الفزع والعقاب والخوف، وهذا هو المناسب لحال المنافقين.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿صَيْحَةٍ﴾:

تهويلٌ للرُّعب النّاجِم مِن كُلِّ صوت

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الصَّيحةِ بصيغة التَّنكيرِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ لِما في التَّنكيرِ مِن تعميم وتكثيرٍ، فَكُلُّ صوتٍ ينادي به المنادي، لنُشدان ضالَّةٍ، أو انفلات دابَّةٍ يحسبونه قاصدًا إيّاهم[1]. كما أنَّه يَدُلُّ على جهالة مصدر الصَّيحة، فَهُم لا يدرون ما نوعُ الصَّوت ولا سببُه، لكنَّهم يظُنّون كُلَّ صوتٍ مرتفعٍ تهديدًا، وكُلَّ نداءٍ نذيرَ فضيحةٍ. وذلك لفرط جُبنِهم، وبيانًا لِما في قلوبهم مِن رُعبٍ وهَلَعٍ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بِحَرف الاستعلاء:

نـــزولُ الـهـلاك متمكِّنٌ منهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك للدِّلالة على شِدَّةِ وقعِ تلك الصَّيحة عليهم، فَكَأنَّها تَقَعُ عليهم وقوعًا لِفَرط خَوفِهم ورُعبِ قُلوبِهم[3].

أثَرُ الموقع النَّحويِّ لقوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المعنى:

تصوّرُ المنافقين للصّيحة على أنّها هي العدوُّ لشدّة خوفِهم وجُبنهم

تَعَدَّدَ أقوالُ النُّحاة في تعيين المفعول الثّاني للحسبان في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ فمِنهُم مَن قال إنَّه ﴿عَلَيْهِمْ﴾، والمعنى: واقِعَةٌ عليهم لِجُبنهم واتِّهامهم؛ فيكونُ مِن باب وضعِ العِلَّة موضع المعلول، وتكونُ جُملةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ مستأنفةً لبيان أنَّهم الكامِلون في العداوة، ومِنهم مَن قال إنَّ المفعولَ الثاني للحسبان

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 404.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 276.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَيْهِمْۚ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿صَيْحَةٍ﴾، وكونُ كُلِّ صَيحَةٍ عدوًّا إمّا للمبالغة، وإمّا بتقدير مضاف، أي: (يحسبون أهلَ كلِّ صيحةٍ).[1]

نُكتةُ فَصلِ قولِه ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾:

التّحذيرُ لِفَضح العَدوِّ المُتخفّي

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا، سيقت للإجابة عَن سَبَبِ هَلَعِ المُنافقين وخوفِهم المُعبَّر عنه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ﴾، فأُجيب بِأنَّ ذلك كان لِأنَّهم أعداءٌ للمسلمين، فكَما أنَّهم يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائِرَ، فَهُم كذلك يَظُنّون أنَّ المسلمين يتربَّصون بهم مضمرين نيَّةَ البَطشِ بهم[2].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾:

تـأكـيـدُ صفة العداء وثبوتها في المنافقين

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾؛ للدِّلالة على تأكيد مضمون الخطاب، وعلى ثبات الحُكم، فَهُم مُتَّصِفون بالعداء الكامل للمسلمين على وجه الثُّبوت.

بلاغةُ القصر بتعريف طَرَفِي الإسناد:

لا عـداوةً كاملَةً إلّا عـــداوة المنافقين

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بأسلوب القصر بطريقة تعريف طَرَفَي الإسنادِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ أي هم العَدوُّ الكامل في العداوة[3]، فلا عدوَّ غيرُهم؛ لأنَّ أضَرَّ الأعداء هوُ العدوُّ المُتخَفّي[4]، والقصرُ ليس حقيقيًّا؛ لأنّ للمسلمين أعداءً غير المنافقين، وإنَّما قَصر العداوة عليهم لبيان شِدَّة ضررها لأنّهم يعيشون بين المسلمين ويَطَّلِعون على شؤونهم، فكأنَّ عداء غيرهم ليس موجودًا، ولا شَكَّ أنَّ إظهارَ المشركين شِركَهم وإعلان اليهودِ كُفرَهم مدعاةٌ للحَذَر؛ أمّا

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 241.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 430.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 486، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 82.

المنافقون فادِّعاؤُهم الإيمانَ وحِلفُهُم وحَلِفُهُم عليه قد يوحي بالرُّكون إليهم ولو رَغبَةً في تأليفهم، فكانوا أولى بالتَّحذيرِ مِنهم بوَصفِ العَداوةِ في قوله: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ لشدَّة عداوتهم ولِقوَّة مُداخَلَتِهم مَعَ المسلمين مِمّا يُمَكِّنهم مِن الاطِّلاع على جميع شُؤونِهم.[1]

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿ٱلۡعَدُوُّ﴾:

جاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلۡعَدُوُّ﴾ دون (الأعداء) لأنَّه مصدرٌ، والمصدرُ يستوي فيه الإفراد والجمع، ولأنَّ عداوتَهم واحدةٌ؛ فلا تختلفُ عداوةُ مُنافقٍ مع المسلمين وعداوة منافقٍ آخرَ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الفاء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ وهي هنا للعطف بمعنى السّببيَّة، فرَبَطَت بين المسبَّب وهو الحذر بالسَّبَب وهو العداوة[2]، فَلَمّا كانوا هُمُ العَدوَّ الكاملَ في العداوة وجبَ الحذرُ منهم أشَدَّ الحَذر، فَهُم أعدى الأعداء.

عداوةُ المنافقين سببٌ لأخذ الحذر منهم

دلالة الأمر في ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بِفِعلِ الأمر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ للدِّلالة على التَّحذير والتَّنبيه على خَطَرِ المنافقين، وعَدَم الاغترار بظواهرهم الخادعة[3]، فوجب على المسلمين التَّنَبُّهُ على هذا العدوِّ الخَفيِّ وعَدَمِ ائتمانهم على السِّرِّ؛ لأنَّهم عيونٌ للأعداء على المسلمين[4].

التَّحذيرُ مِن خَطَرِ المنافقين وعدم الاغترار بظواهرهم

دلالةُ الإفراد في قوله ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالإفراد في قوله ﴿فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ دون الجمع (فاحذروهم)؛ لأنَّه موَجَّهٌ لرسول الله ﷺ ولِكُلِّ مَن يتأتَّى منه

خطابٌ للرَّسولِ أصالةً ولأُمَّتِه تَبَعًا

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان 192/ 8.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 254.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 486.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 276.

الخطاب، وتوجيهُ الخطاب له ﷺ فيه إشارةٌ إلى عظيم خطرهم، حتّى كان التَّحذيرُ موجَّهًا أصالةً إلى الرّسول نفسِه، وإذا كان الأمرُ موَجَّهًا لرسول الله الذي يوحى إليه فمِن باب أولى أن تأخذ الأُمَّةُ حِذرَها.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

التَّعَجُّبُ مِن بُعدِ انحرافهم وشِدَّة ضلالهم

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجُملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ سيقت تذييلًا لِما سبق، فلمّا تَقَدَّم ذِكرُ صفاتهم وفضحُ دواخلهم تَعَجَّب مِن شِدَّةِ تَوغُّل الضَّلالة والجهالة فيهم لانصرافهم عن الحقّ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقَتل مادَّةً وصيغةً:

الدُّعاءُ عليهم بالطَّرد واللَّعن

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ القتل في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ وذلك لِتَعَدُّدِ المراد بهذه الجملة؛ فيجوز أن يكون المرادُ بها الدّعاء عليهم بالطَّرد واللَّعن، ويجوز أن تكون بمعنى التَّعجيب مِن حالهم الّتي بلغت النِّهاية في السّوء والقبح[2]، ويجوز أن يكون مِن باب تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك لهم؛ فهو ليس مِن القتال الّذي يعني المحاربة، بل هو مِن باب اللَّعن والدُّعاء بالطَّرد[3].

وجاء التَّعبيرُ بالقتل مِن باب المناسبة لِقُبح أعمالِهم وبشاعة فِعلِهم، ذلك أنَّ القتل مِن أبشع الأمور وأشدِّها لِما فيه مِن إزهاق الأرواح وإعدامِها مِن الوجود، وكذلك القتلُ في معناه المجازيِّ؛ فهو يحمل معنى الطَّرد واللَّعن، ومَن طُرد مِن رحمة الله يعيش أقسى أنواعِ العذاب؛ فهو ميِّتٌ لحرمانه مِن الرَّحمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 242.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 14/ 405.
(3) الواحديّ، البسيط: 10/ 382، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 149.

دلالة التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في المُسند إليه:

تهويلُ السَّخط بالدُّعاء عليهم بالمقاتلة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ في المسند إليه باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ للدِّلالة على شِدَّةِ المقاتلة واللَّعنة، فإنَّ الله تعالى هو مَن يلعنُهم ويطردُهم، فنسبة الفعل إلى الله - الجامع لصفاتِ العظَمة والقُدرة والقَهر... - يدُلُّ على شِدَّة أثَرِه وتأكيد تحقُّقِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ في قوله ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾:

تعجُّبٌ إنكاريٌّ يفضح جَهلَهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باسم الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ وهو هنا بمعنى (كيف)، والمراد منه التَّعجيبُ مِن شِدَّةِ جَهلِهم وضلالتهم، ومِن ظَنِّهم الفاسد بأنَّهم على الحَقِّ[2].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انصرافٌ مستمرٌّ عن الحقِّ وإصرارٌ على الضَّلال

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل الإفكِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ دون الصَّرف؛ لأنَّ الإفكَ كذبٌ يقلِبُ الحقائق؛ يقال أفِكَ الرَّجلُ عن كذا إذا عدل عنه، ومنه الأفّاك الَّذي يصرف النّاس عن الحقِّ؛ بخلاف الصَّرف فإنَّه يُستعمل في مُطلق التَّحويل والتَّنقُّل، وعلى هذا فالتَّعبيرُ بالإفك هو المناسب لسياق الآية؛ لأنَّ المنافقين كَذَبوا وقَلَبوا الحقائق، ولأنَّه دالٌّ على الانصراف والإعراض عن الهدى، وهُم قد فَعَلوا ذلك، فما آمنوا برسول الله مَعَ وجود الأدلَّة الدّالَّة على صِحَّة نُبوَّته ﷺ، وصَدّوا عن سبيله، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع للدِّلالة على تجدُّد الانصراف واستمراره، والتَّعبيرُ بصيغة المبنيِّ للمفعول ليشمل كُلَّ صارف يصرفهم، فَهُم يصرفون أنفُسَهم وكذلك يصرفهم مَن يضلُّهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 82.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 243.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّماع والإصغاء والإنصات:

السّمع هو إدْراك المسموع، واسم الآلة التي يسمع بها الإنسان. أمّا الإصغاء فهو طلبُ إدْراك المسموع بإمالة السَّمع إلَيْه، يُقال صغا يصغو إذا مال وأصغى غَيره[1]. أمّا الإنصات فأصله يدُلُّ على السُّكوت[2]. والإنصات: السّكوت والاستماع للحديث[3]. فهو الاستماعُ مع السّكوت. فعبّر في الآية بالسَّماعِ لأنّه مجرّدُ إدراك القول الَّذي يقولونه.

السّماع إدراك المقول، والإصغاء اجتهادٌ للاستماع، والإنصات سكوتٌ للاستماع

(يُؤْفَكون) و(يُصْرَفون):

الصّرف: يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو ردُّ الشَّيء مِن حالة إلى حالة[4]، صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعوا[5]. أمّا يؤفكون: فهو صرف الشّيء عن جهته[6]. قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصْرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِف[7]. والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقّ أن يكون عليه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[8]. فالصَّرف تحوُّلٌ عامٌّ، بمعنى الرَّدِّ والإرجاع، يستعمل للردِّ العامِّ ولا يتعلَّق بالتَّوجُّه. أمّا الإفكُ فهو صرفٌ عن الوجه الَّذي ينبغي أن يكونوا عليه، وعَبَّر في الآية بالإفك لأنَّهم انصرفوا عن الإيمان والحقِّ مع قيام الادلَّة عليه.

الصَّرفُ تحويلٌ ورَدٌّ، والإفكُ انصرافٌ عَمّا ينبغي أن يكون عليه

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصت).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نصت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(8) الرّاغب، المفردات: (أفك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"